إحياء
Ihyae

دراسة

المعرفة وطرق الوصول إليها

عبد الرحمان الميداني

24 مارس 2019

المعرفة:

هي إدراك ما لصور الأشياء أو صفاتها أو سماتها وعلاماتها، أو للمعاني المجردة سواء أكان لها في غير الذهن وجود أو لا.

وكمال المعرفة يكون بمطابقة الإدراك لما عليه المُدرَك في واقع نفسه من صورة أو صفة أو سمة أوعلامة، أم وجود أو عدم، أو حق أو باطل، أو غير ذلك مما يتعلق به.

فإن كان الشيء مما له صورة يدرك بالحس الظاهر أو الباطن فمعرفة صورته تكون بانطباع هذه الصورة في نفس المدرك، وإن كان مما له صفة ما أو سمة ما لا تدرك بالحس، فمعرفة هذه الصفة أو هذه السمة تكون بإدراكها على ما هي عليه في الواقع، وإن كان من المجردات العقلية كالوجود والعدم، والحق الباطل، والخير والشر، فمعرفته تكون بإدراك حقيقته المجردة على ما هي عليه في واقع أمرها، وهكذا إلى سائر ما يمكن أن يتناوله الإدراك.

العلم:

إدراك الشيء أو المعنى على ما هو عليه في الواقع هو ما يسمى باسم (العلم)[1].

اليقين:

وحين يجزم المدرك بأن ما أدركه مطابق للواقع قطعا، ويكون كذلك في حقيقة أمره بالدليل القاطع فإن جزمه هذا هو ما يسمى باسم (اليقين).

الاعتقاد:

أما حين يجزم المدرك بأن ما أدركه مطابق للواقع قطعا، دون أن يقترن جزمه بالدليل القاطع على مطابقته للواقع، فهو ما يطلق عليه اسم "الاعتقاد الجازم" فقط أو اسم "الإيمان"، وقد لا يكون هذا الاعتقاد في حقيقة الأمر مطابقا للواقع وعندئذ يكون اعتقادا فاسدا.

---

[1] قد يطلق "العلم" لغة على المكتسب بدليل ظني راجح قابل للتغيير والتعديل، ومنه في الاستعمالات القرآنية قول الله عز وجل في سورة (الممتحنة 60): [يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن - الله أعلم بإيمانهن - فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن .....] فالعلم بإيمانهن عن طريق الامتحان علم ظني.
ويطلق في الاصطلاح لفظ (العلم)، واحد العلوم، على مجموعة معارف ظنية راجحة ومنها ما هو قطعي، بشرط أن تكون منظمة حول موضوع ما. كعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، وعلم الجغرافيا، وعلم الطب

والعلم قد يكون علما باعتبار، ويقينا باعتبار آخر، واعتقادا جازما أو إيمانا باعتبار ثالث.

درجات العلم:

والعلم المطابق للواقع على درجات بعضها فوق بعض بالنسبة إلى تمكنه وتأثيره على جوانب النفس المختلفة.

فما يلزم الفكر إلزاما لا يحتمل النقيض فهو اليقين، وقد يصاحبه الإيمان، بمعنى الاعتراف والتسليم.

وفوق ذلك ما يلزم الفكر إلزاما لا يحتمل النقيض ويورث القلب مع ذلك طمأنينة تامة، وهو ما طلبه إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ((رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي)).

وفوقهما ما يلزم الفكر ويورث القلب طمأنينة تامة، ويورث النفس مع ذلك متعة ولذة، وعندئذ يملك كل أركان الإنسان الداخلية: (فكره وقلبه ونفسه) وعندئذ يكون قادرا على توجيه سلوك الإنسان دون معارض من داخل نفسه.

- **الظن الراجح**:

ودون مرتبة اليقين تأتي مرتبة الظن الراجح، الظن[2] الراجح درجات: أعلاها (المشهور) وهو الذي يقارب اليقين، حتى لا يكاد يخطر على الفكر أن نقيضه ربما كان ممكنا، كأكثر قضايا العدل، والفضائل، والرذائل.

وتتنازل الدرجات حتى تنتهي بأدناها، وهي التي ليس بينها وبين الشك درجة.

- **الشك**:

وتأتي من دون مرتبة الظن الراجح مرتبة الشك، وهي مرتبة تتساوى فيها الاحتمالات تساويا تاما، فلا يكون لبعضها رجحان على بعض، والإدراك في هذه المرتبة إدراك بلا رجحان[3].

---

[2] يطلق لفظ "الظن" لغة على كل درجات ما دون العلم اليقيني حتى أدنى درجات الوهم، ومنه في الاستعمالات القرآنية: [اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم]. ولا يكون الظن إثما إلا إذا كان مما لا يصح الاعتماد عليه في الأحكام والأقضية والاجتهادات.

[3] يستعمل في اللغة "الشك" بهذا المعنى، وبما دونه حتى أدنى الوهم من الظنون المرجوحة، ومنه في الاستعمالات القرآنية: [أفي الله سك] أي: أفي تحقق وجوده أدنى ظن مرجوح؟.

- **الظن المرجوح:**

وتأتي من دون مرتبة الشك مرتبة الظن المرجوح، وهو الظن الوهمي المقابل للظن الراجح، ولذلك يسمى (وهما)، وهو على درجات تقابل درجات الظن الراجح.

فبمقدار رجحان الاحتمال المقابل له تكون نسبة ضعفه، فإذا كان الاحتمال المقابل له قريبا من يقين الإثبات كان هو قريبا من يقين النفي، وإذا كان دون ذلك متنازلا إلى جهة مرتبة الشك كان هو متصاعدا إلى جهة مرتبة الشك أيضا حتى مقاربتها، وكأنهما على كفتي ميزان، كلما زاد الراجح منهما رجحانا زاد مقابله خفة وضعفا، وكلما تناقض الراجح منهما في رجحانه تزايد مقابله في تقاربه إليه.

مرتبة ما دون الظن المرجوح: إلا مرتبة الباطل بيقين، وعندئذ يدخل في عموم اليقين، وتقفل الدائرة.

وحين يصل الظن المرجوح إلى مرتبة الباطل بيقين يصطدم بسقف الطيش، كما يصطدم نقيضه بأرضية الحق بيقين، ويمثله الرسم البياني في الشكل الأول التالي، أو يصير أفقي الميزان قائما، ويمثله الرسم البياني في الشكل الثاني التالي:

الشكل الأول

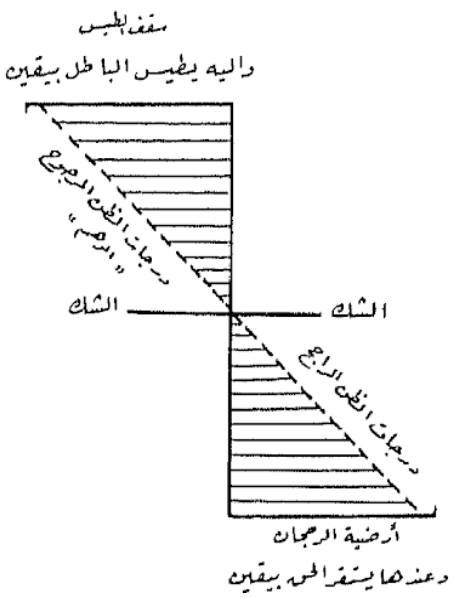

الشكل الثاني

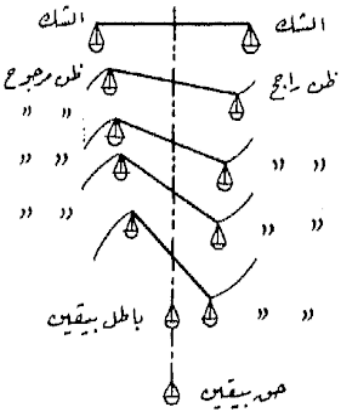

طرق الوصول إلى المعرفة:

عملية البحث عن المعرفة عملية تتعاون فيها وسائل الحس الظاهرة والباطنة والآلات والأدوات التي تستخدمها الحواس، وموازين العقل الفطرية والمكتسبة، ومعارفه السابقة التي اكتسبها بنفسه، والتي تلقاها عن غيره، مما اكتسبه الآخرون من معارف، يضاف إلى ذلك ما يوحي به الله لأنبيائه من معارف تكون لديهم علوما يقينية شبيهة بالعلوم اليقينية التي يكتسبها الناس العاديون بحواسهم.

- **أمثلة:**

أ- فالحس مثلا بلذع النار، فيُكوِّن ذلك لدى الإنسان خبرة ما حول النار، وهذه الخبرة تكسبه معرفة ببعض صفاتها، بألم لدغها وألم حرقها.

وهكذا في كل ما يشعر به حس اللمس من حرارة وبرودة، وخشونة وملاسة، وليونة وصلابة، وغير ذلك.

والذوق يشعر بحلاوة السكر مثلا، فيكون ذلك لدى الإنسان خبرة ما، وهذه الخبرة يعرف بها طعم السكر، ولذة حلاوته. وهكذا في كل ما يذوق من طعوم.

والبصر يشعر مثلا بألوان المرئيات وأشكالها وأبعادها، وتتوارد عليه الخبرات البصرية، وبها يكتسب الإنسان معارف بصرية مختلفة تتعلق بالألوان، والأبعاد، والحجوم، ومقادير المساحات، ونحو ذلك.

والسمع يشعر بالأصوات المختلفة، وصفاتها، ودرجاتها، ومقاديرها، وتتوارد عليه الخبرات السمعية، وبها يكتسب الإنسان معارف سمعية متنوعة.

وحاسة الشم تشعر بالروائح المختلفة، وصفاتها، ودرجاتها، ومقاديرها، وآثارها في النفس، وتتوارد عليه الخبرات العديدة في هذا المجال، وبها يكتسب الإنسان معارف مختلفة تتعلق بالروائح.

وهكذا تتوارد التجارب في حياة الإنسان فيكتسب منها معارف عن طريق الإحساس المباشر بالحواس الظاهرة، وهذه الحواس هي بمثابة منافذ يطل منها الفكر على العالم، فيدرك منه بشكل مباشر ما تستطيع هذه الحواس أن تحس به وتنقله من صفات الأشياء إلى منطقة الإدراك الفكري، ثم تسجل الذاكرة لديها ما تؤكده الحواس بتكرار التجربة،

وبعد ذلك يبدأ الفكر عمله فيما سجلته الذاكرة من صور وردت إليها عن طريق الحواس الظاهرة.

ولا يخفى علينا أن هذه الحواس محدودة جدا لا تدرك كل شيء يمكن إدراكه في الوجود، إنها منافذ قصيرة المدى محدودة كماً وكيفاً.

فمن جهة الكم نلاحظ أنه متى تجاوز البعد المسافة التي تسمح لنا بالإحساس ظهر عجز حواسنا عن إدراك الأشياء.

ومن جهة الكيف نلاحظ أنه لابد من مرافقة شروط خاصة لكل حاسة فينا حتى نستطيع بوساطتها إدراك الأشياء المعروضة على حسِّنا، فحاسة البصر مثلا تحتاج إلى الضوء حتى ترى الأشياء، ومتى انعدم الضوء وحل الظلام الدامس انعدمت الرؤية تماما، وكذلك متى صغرت الأشياء إلى المراتب الدنيا في الصغر لم نستطع رؤيتها إلا بوساطة المجاهر المكبرة إلى ملايين المرات أحيانا، وهكذا تحتاج كل حاسة إلى توافر شروط خاصة حتى تدرك محسوسها.

ويتفاوت الناس في مستويات حواسهم الظاهرة قوة وضعفا.

ب - ونظير ما نشعر به الحواس الظاهرة ما نشعر به بالحواس الباطنة، إذ يمر الإنسان فيها بخبرات كثيرة، فيدرك فكره هذه الخبرات، وتسجلها الذاكرة، ثم يبدأ الفكر عمله فيما هو مسجل لديه منها.

فمثلاً يمر الإنسان بخبرة حب، فيعرف من الحب بمقدار مشاعره حوله، ويمر بخبرة كراهية، فيعرف منها بمقدار مشاعره حولها، ويمر بخبرة ضيق صدر، فيعرف ذلك، ويمر بخبرة انشراح صدر، فيعرف ذلك، ويمر بخبرات حقد وحسد وبغضاء، فيعرف من صفات هذه الأشياء ما أحس به في داخل نفسه منها وتلتقطها الذاكرة، ويضعها الفكر مواد بحث بين يديه.

والحواس الباطنة محدودة، كما أن الحواس الظاهرة محدودة.

ويتفاوت الناس في مستويات حواسهم الباطنة قوةً وضعفاً، وبعض الحواس الباطنة يمتاز بها بعض الموهوبين امتيازاً فائقاً، وللأنبياء نصيب من امتياز الحواس الباطنة لا يوجد عند غيرهم.

وهكذا تغدو الخبرات التي يمارسه الإنسان بحواسه الظاهرة والباطنة أولى وسائل اكتسابه للمعارف.

جـ - والفكر يمارس أعماله بعد أن توجد لديه مجموعة من مواد المعرفة، التي وردت إليه عن طريق الحواس الظاهرة والباطنة، ويضيف إليها موازين أساسية موجودة لديه في أصل فطرته، قد يطلق عليها قوانين الفكر العقلية، وبهذه الموازين الفطرية يستطيع العقل أن يحكم على كثير من الأفكار بالإثبات أو بالنفي.

وبهذه الموازين الفطرية العقلية يحكم العقل أحكاما ذاتية فيما يلي:

1- إنه يحكم بالتوحيد بين الفكرة وماهيتها المكونة لها، وهو المعبر عنه، بما هو هو.
2- إنه يحكم باستحالة التناقض أو ما يؤدي إلى التناقض، وهذا يرجع إلى الأصل العقلي المسمى (قانون عدم التناقض). ككون الشيء موجودا ومعدوما في آن واحد ومكان واحد، وكون جزء الشيء أكبر من كله، مع محافظة الجزء على كونه جزءا، ومحافظة الكل على كونه كلا لهذا الجزء.
3- ويحكم العقل بأن الشيء إما أن يكون موجودا وإما أن يكون معدوما، وهذا يرجع إلى الأصل العقلي المسمى (قانون الامتناع) أو (قانون الوسط المرفوع) إذ ليس بين الوجود والعدم وسط يعتبر شيئا ثالثا غير الوجود والعدم، وهذا هو ما يعبر عنه باستحالة رفع النقيضين.
4- ويحكم العقل بواحد من أحكامه الثلاثة التي يحكم بها على كل ما يقع في تصوره، وهي: (واجب الوجود فلا يتصور في العقل عدمه،- واجب العدم أو مستحيل الوجود فلا يتصور في العقل وجوده،- ممكن الوجود ويتوقف وجوده على علة أو سبب).
5- ويحكم العقل بأن كل حادث لم يكن ثم كان، لابد له من سبب غيره سابق عليه في الوجود اقتضى وجوده.
6- ويحكم العقل قابلية العدد للتسلسل إلا ما لا نهاية له في التصور.
7- ويحكم العقل باستحالة الدور وهو توقف وجود الشيء على وجوده نفسه، وباستحالة تسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية له في الوجود الأول (الماضي).
8- وقدرة التخيل لدى العقل تستطيع تصور مركبات جديدة غير موجودة في الواقع بهيئتها التركيبية، ولكنها موجودة بأجزائها، وهذه القدرة تنتزعها من أماكنها وتؤلف بينها في صورة مبتكرة.

وقدرة التخيل مهما كانت واسعة المدى في الإبداع والابتكار فإنها لا تستطيع أن تبتدع جزءا لم ترد إليها صورته عن طريق الحس الظاهر أو الباطن، وتنحصر إبداعاتها وابتكاراتها في تخيل تركيبات جديدة على غير مثال سبق، عن طريق التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، وإضافة مقادير إلى ما لا نهاية له، ونقص مقادير حتى آخر جزء ممكن.

حدود العقل:

وللعقل - كما للحس الظاهر والحس الباطن - حدود ينتهي إليها، متى وصل إليها أعلن عجزه.

إنه محدود بين شيئين هما الزمان والمكان، لذلك يسأل دائما متى؟ وأين؟ مع أن الحقائق الكبرى لا مكان لها ولا زمان، ولكن العقل عاجز عن تصور ذلك.

إنه محدود حينما يعلن عن التسليم بواحد من احتمالين لا ثالث لهما، هما هل الكون متناهي الحدود؟ أو هو غير متناهي الحدود؟

إنه يتسلسل في تصوراته حتى يصل إلى حد فوق عوالم المجرات، وهنا يقف عاجزاً عن التفكير، لا يستطيع أن يقتنع باللانهاية، ولا يستطيع أن يسلم بالنهاية.

فإذا قال لنفسه: انتهى الكون، قال له وهمه: وماذا بعد النهاية؟!

وإذا قال لنفسه: الكون لا نهاية له، فقال له منطقه المشدود إلى المُحَسَّات: كيف يكون شيء لا نهاية له؟

ثم هو مضطر بعد ذلك أن يظل مترددا بين هذين الاحتمالين، لأنه لا ثالث لهما، وهو لا يستطيع أن يقتنع بواحد منهما، وما ذلك إلا لأنه محدود.

وعالم الغيب لا يستطيع العقل مستقلا أن يحكم على شيء فيه بإثبات أو نفي، إلا ضمن أحكامه الذاتية: قانون عدم التناقض- قانون الامتناع- قانون تردد الشيء بين أحكام العقل الثلاثة: واجب الوجود وواجب العدم (مستحيل الوجود) وممكن الوجود ويتوقف وجوده على علة أو سبب - قانون توقف وجود الحادث على سبب من غيره سابق عليه في الوجود- قانون قابلية العدد للتسلسل إلى ما لا نهاية له في التصور- قانون استحالة الدور- قانون استحالة تسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية له في جانب الوجود الأول (الماضي) - ثم ما يفترضه من تخيلات تركيبية لا حصر لها.

إذن فما هو وراء العقل - كما قال الإمام الغزالي[4] - قد يكون بعيداً عن تصور العقل وتوهمه بعداً بالغ النهاية، لأن العقل محجوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعداها، لكنه لا يمكن أن يكون وراء العقل أشياء يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالتها، فهناك فرق كبير بين ما لا يدركه العقل فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات، لأنه ليس من الأمور التي يتناولها بأحكامه، بين ما يحكم العقل قطعا بنفيه أو إثباته.

أعمال العقل الاستنباطية والاستدلالية:

وبما يجتمع لدى العقل من صور المدركات عن طريق الحس الظاهر أو الباطن، أو عن طريق أخبار الآخرين التي تحكي ما توصلوا إليه من معارف، وبما يتخيله من صور تركيبية جديدة يبتكرها، وبما لديه من أصول فطرية تتألف منها موازينه وقوانينه الذاتية، يستطيع أن يقوم بأعمال فكرية كثيرة، منها الأعمال التالية:

1- يستطيع العقل بنفسه استنباط الجزئيات من الكليات، وإدراك الكليات من النظر في الجزئيات، وتعميم الأحكام عن طريق قوانينه الذاتية، أو عن طريق الاستقراء.
2- ويستطيع العقل قياس الأشباه والنظائر بعضها على بعض.
3- ويستطيع العقل استنباط مقابلات المعاني وعكوسها، فيدرك النقيض وما هو داخل فيه متى عرف النقيض، ويدرك العكس متى عرف الأصل.
4- ويستطيع العقل بنفسه أن يجري أعمال التحليل والتركيب والجمع والتفريق فيما لديه من مدركات.
5- ويستطيع العقل بنفسه أن يدرك النسب بين المعاني والمدركات التي لديه.
6- ويستطيع العقل بنفسه إدراك الروابط بين المعلولات وعللها العقلية، وبين المسببات وأسبابها المنطقية، وأن يدرك آثار الأشياء ونتائجها المنطقية المستندة إلى مبدأ العلة العقلية، أو السبب المنطقي.
7- ويستطيع العقل أن يدرك من ملاحظته للتجارب المتكررة أحكاما عامة، ولو لم يكن بين السبب والظاهرة ارتباط عقلي.
8- ومتى عرف العقل الشيء الناقص، فإنه يستطيع بنفسه أن ينطلق في سلم كمال هذا الشيء متعرفا على درجاته درجة فدرجة، ضمن قوانين التكامل.
9- ومتى أدرك العقل الشيء الكامل أو المرتقي في درجات الكمال، فإنه يستطيع بنفسه أن ينطلق فيتصور احتمالات نقصه دركة فدركة حتى أسفلها.

---

[4] في كتابه: المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.

10-ومتى أدرك العقل الجميل وأحس بمواطن جماله استطاع أن ينطلق بنفسه فيتصور الاحتمالات التي تشوهه وتقبحه فتجعله غير جميل.
11-ويستطيع العقل بنفسه أن ينطلق في إدراك احتمالات المقادير فيزيد فيها وينقص إلى ما لا نهاية له؛ فيزيد الكميات وينقصها، ويزيد الأبعاد المكانية وينقصها، ويزيد الأبعاد الزمانية وينقصها، ويزيد مقادير الحرارة وينقصها، ويزيد مقادير الضغط وينقصها، وهكذا إلى كل شيء خاضع لحساب المقادير.
12-ويستطيع العقل بنفسه أن ينطلق في إدراك احتمالات اختلاف الكيفيات إلى ما لا نهاية له، فيغير فيها ويبدل بشكل لا حصر له، فلو أمسك عجينة من الشمع المطاوع، وانطلق يطرح احتمالات تغيير كيفيتها لما وقفت تغييراته عند حد.

وهكذا يتضح لنا كيف يقوم العقل بأعماله التي لا حصر لها، ضمن المواد الأولى التي تصل إليه عن طريق الحس الظاهر أو الباطن، أو التي تصل إليه عن طريق أخبار الآخرين وشهاداتهم، مضافا إليها ما لديه من قوانين ذاتية، وما لديه من قدرة على التخيُّل.

ولكن ينبغي أن نعلم أنه ليس كل ما يدركه الفكر هم من قبيل اليقين، بل هو ينقسم إلى أقسام الإدراك التي سبق بيانها: [الحق بيقين - الظن الراجح - الشك - الظن المرجوح (الوهم) - الباطل بيقين].

وعلى العقل أن يصنف معارفه، ويضع كلا منها في مرتبته ودرجته التي يستحقها، ضمن قوانينه الفطرية والمكتسبة.

خلاصة طرق المعرفة:

وإذا أردنا أن نلخص أصول طرق المعرفة تبين لنا أنها ترجع إلى الطرق التالية:

الطريق الأول: الإدراك الحسي بالحواس الظاهرة أو الباطنة، ويدخل فيه المجربات، لأن إدراكها يعتمد على ملاحظة الحس، مضافا إليها تعميم عقلي يأتي عن طريق التمثيل.

الطريق الثاني: إدراك ما تتضمنه شهادات الآخرين وأخبارهم من معارف.

الطريق الثالث: إدراك قوانين العقل الذاتية، وإدراك ما يستنبطه العقل من معارف مما ورد إليه عن الطريقين السابقين.

والعقل بما لديه من موازين فطرية- هي أبعد عن الخطأ من شهادات الحس، وشهادات الآخرين من الناس غير المعصومين- يعتبر حكما يرجع إليه في تمحيص المدركات

بالحس، وتمحيص ما تتضمنه شهادات الآخرين وأخبارهم من معارف، فيجزم بما يراه حقا يقينا، ويقبل ما يترجح لديه منها، ويطرح ما يشك به أو ينزله إلى ما دون الرجحان، ويرفض ما يحكم بامتناعه واستحالته بناء على قوانينه الذاتية.

فليس كل وارد إلى الجهاز الفكري المدرك هو على مرتبة واحدة، بل هو على مراتب أعلاها الحق بيقين، وأدناها الباطل بيقين، وبينهما الظن الراجح والشك والظن المرجوح.

كيف نميز بين مراتب الإدراك؟

1- حين يقدم الحس شهادته المؤكدة القاطعة بعد عمليات الإدراك الحسي المتواترة، وتتفق معها شهادات الحواس الأخرى، وشهادات حواس الآخرين، ولا تتعارض مع أصل من أصول العقل وقوانينه، تغدو المعرفة الحسية يقيناً مقطوعاً بصدقه، ومهما تنازلت قوة الإدراك الحسي عن هذا المستوى فإنها تتنازل رتبة المعرفة إلى مرتبة الظن الراجح بمختلف درجاته حتى مرتبة الشك، حتى آخر مرتبة الظن المرجوح.
2- وحين يقدم الآخرون شهادتهم، فإن بلغت مبلغ التواتر الذي يرى العقل فيه استحالة الاتفاق على الكذب، ولا يتعارض مضمون خبرهم مع أصل من أصول العقل وقوانينه الذاتية، تغدو المعرفة الخبرية يقينا مقطوعا بصدقه، ومهما تنازل الخبر عن مرتبة التواتر تنازلت رتبة المعرفة الحاصلة به إلى مرتبة الظن الراجح بمختلف درجاته حتى مرتبة الشك، ثم حتى آخر مرتبة الظن المرجوح.

ونظير الخبر المتواتر خبر النبي المعصوم المؤيد من الله بالمعجزات، ونظير الخبر المتواتر وفي قوته ما تلتقي عليه مجموعة دلائل خبرية وحسية، وقرائن ودلائل عقلية ترتقي به لدى العقل إلى مرتبة اليقين المقطوع به.

وعلى الباحث أن يتفحص الأخبار الظنية ضمن أصول البحث العلمي لدى علماء أصول الحديث (علم المصطلح).

وله أن يضيف إلى ذلك محاكماته العقلية الخاصة، المستندة إلى طرق المعرفة الأخرى.

3- وحين يقدم العقل أحكامه، فإن كانت خاضعة إلى أحد قوانين العقل القطعية، أو مستندة إلى ما يفيد اليقين من شهادات الحس، أو الشهادات الخبرية، كانت أحكاما يقينية مقطوعا بها، وإن كانت مستندة إلى ترجيح ظني بدليل من أدلة العقل كانت

أحكاما ظنية، وتناسب قوتها قوة الظن الراجح، وإن كانت أحكاما احتمالية لا ترجيح فيها، كانت في مرتبة الشك أو في مرتبة الظن المرجوح بحسب مقدار ضعفها.

الاستدلال والحجة:

وأعمال العقل في البحث عن المعارف أعمال استدلالية، والاستدلال إما أن يكون مباشرا أو غير مباشر.

ولدى عرض أعمال العقل على الآخرين لابد من أن تصاغ وفق طريق من طرق الحجة حتى يقتنعوا بها.

لذلك لا بد لنا من التعرف على طرق الاستدلال المباشر وغير المباشر، وكيفية صوغ الحجج المقنعة، وهذا ما ندرسه في القسم الثالث من الكتاب (طرق الاستدلال).

وسائل البحث

عمليات

التقسيم والجمع، والتحليل والتركيب

الكلي ينقسم - كما عرفنا - إلى جزئيات، وهذه الجزئيات تكون أنواعا، كانقسام الجنس إلى أنواعه، وتكون أصنافا أو أفرادا كانقسام النوع إلى أصنافه أو أفراده، ومثال انقسام النوع إلى أصنافه: انقسام الإنسان إلى أبيض وأسود وأحمر وأصفر، وانقسامه إلى إفريقي وآسيوي وأوروبي، وانقسامه إلى ذكي وبليد وما بينهما، وانقسامه إلى صحيح وعليل، وانقسامه إلى مؤمن وكافر، وإلى تقي وفاجر، وهكذا لا تكاد تنحصر تقسيمات الأصناف باختلاف الاعتبارات. ومثال انقسام النوع إلى أفراده: انقسام الإنسان إلى سعد وباسم وجميل، وسعدية وباسمة وجميلة، وهكذا إلى سائر أفراد نوع الإنسان.

والجزئيات المشتركة في معنى يطلق هذا المعنى على كلٍّ منها يمكن أن تجمع ذهنا في كُليٍّ واحد، فحيث نجد أشياء مشتركة في معنى جامع لها - ولو بوصف من الأوصاف - يمكن أن نجمعها تحت اسم كلي جامع مشتق من هذا الوصف المشترك، فوحيد القرن كلي يمكن أن يطلق على كل حيوان ذي قرن واحد فقط. وذوات القوائم الأربع كلي نجمع تحته كل حيوان يمشي على أربع قوائم. والثديي كلي نجمع تحته كل حيوان يرضع بثدي له، أو هو من نوع ما يرضع بثدي له. والأبيض كلي نجمع تحته كل ذي لون أبيض من أي نوع ومن أي جنس، والطويل كذلك. وهكذا إلى ما لا حصر له.

والكل يتألف- كما عرفنا سابقا- من أجزاء، والأجزاء البسيطة أو المركبة قابلة لتركيب بوجه ما، سواء أكان هذا التركيب على وجه له نظير في التركيبات الطبيعية، أو على وجه آخر يفترضه الخيال، وكل مركب قابل للتحليل إلى أجزائه الصغيرة وعناصره الأولى.

أ - عمليات التقسيم والجمع:

فمن الوسائل النافعة جدا أو الضرورية في كثير من الأحيان في مجال اكتساب المعارف الحسية أو الاستنباطية؛ النظرية أو العملية، عمليات التقسيم والجمع، أي تقسيم الكلي إلى جزئياته وإلى أصنافه، وجمع الجزئيات المتفرقة في كلياتها.

ففي التقسيم لكليات الأشياء تيسير لدراسة كل قسم دراسة مستوعبة، أو أكثر إحاطة بالصفات والخصائص، وبعد الدراسة الجزئية التفصيلية، واستنباط الأحكام منها،

تعود العملية إلى جمع الأحكام الجزئية المتماثلة، أو جمع الأشباه والنظائر، وإعطائها صفة القاعدة الكلية الشاملة لأفراد الصنف، أو لأفراد النوع، أو لأفراد الجنس القريب أو البعيد، ففي هذا الجمع اختصار للمعرفة، وإيجاز فيها دون الإخلال بالمقصود منها، ودون الإخلال بتطبيقاتها، بل هي أيسر وأحكم لضبط الجزئيات دون إخلال، وفي هذا الجمع أيضا معرفة جديدة، تكتسب فيها كليات الأحكام.

ومن طبيعة الفكر ميله دائما إلى إدراك كليات الأحكام، وكليات القضايا، ليوفر على نفسه حفظ كل جزئي وصفاته وخصائصه، وليستوعب في أقصر مدة أوسع ما يمكن معرفة، وليتيسر له تطبيق ما استوعب من أحكام كلية على كل جزئي يتعرض له من الجزئيات الداخلة في عموم ما ينطبق عليه الحكم الكلي، ولو لم يكن له بخصوصه سابق معرفة به.

لذلك يلجأ الباحثون بعد عمليات البحث إلى استخلاص الأحكام الكلية العامة، وصوغ القواعد الكلية، والقوانين العلمية، ثم يضعون هذه الأحكام والقواعد والقوانين أسسا يبنى عليها وينتفع بها في كل مجالات المعرفة النظرية والتطبيقية.

ب - عمليات التحليل والتركيب:

ومن الوسائل النافعة جدا، أو الضرورية في كثير من الأحيان، في مجال اكتساب المعارف الحسية أو الاستنباطية النظرية أو العملية، عمليات التحليل والتركيب.

ويقصد بالتحليل تجزئة الكل إلى أجزائه التي يتألف منها، بسيطة كانت أو مركبة، ودراسة كل جزء منها دراسة خاصة به، لمعرفة صفاته، وخصائصه ووظائفه، ثم النظر في وجه ترابط الأجزاء بعضها ببعض، وأداء كل جزء منها وظيفته الخاصة به، بحسب موضعه من الكل، حتى اجتمع منها الكل فأدى وظيفته الكبرى القائمة على تعاون الأجزاء.

وبعد عمليات التحليل للشيء الواحد، أو لعدد من الأشياء، وبعد النظر في صفات الأجزاء وخصائصها، وما يمكن أن تقوم به من الوظائف، تأتي عملية إعادة التركيب، أو ابتكار تركيب جديد يفترضه التخيل، ملاحظا الملاءمة بين التركيب الذي يتخيله وبين غاية من غايات الإنسان في الحياة.

إن الباحث في طب الإنسان لابد له من أن يحلل الإنسان إلى أجزائه التي يتألف منها، جسدية كانت أو نفسية، ثم يدرس كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزاء نفسه دراسة تشريحية تفصيلية، ويدرس اللحم والدم والعظم والجملة العصبية والخلايا

ووظائفها وآثارها وعللها، ويعرف العناصر التي تتركب منها، وما يؤثر عليها، وما ينتج عنها، وما تقوم به من وظائف ضمن الجهاز الكلي.

وفي دراسته لنفس الإنسان يدرس عناصرها الأساسية، وما يؤثر فيها، وعلاقاتها بالجسد وتأثيرها فيه، وتأثرها منه، وخدمات كل منها للآخر، وتعاونه معه.

وبعد عمليات التحليل يصدر أحكامه العامة التي توصل إليها، ثم يجري تطبيقاته العملية وفق ما توصل إليه هو أو غيره من الباحثين من أحكام عامة، ووفق ما يلاحظ من حالات خاصة في واقع الشخص الذي يعالجه.

والباحث الكيميائي يحلل المواد إلى عناصرها البسيطة أو أجزائها المركبة وفق ما يتيسر له، وبعد دراسة هذه العناصر ودراسة خصائصها باستطاعته أن يبتكر مركبات جديدة يفترضها، ويجري التجربة عليها، ويلاحظ نتائج التجربة، فيسجل خصائص المركب الجديد، وما يمكن أن يقدمه هذا المركب الجديد من فوائد تخدم الإنسان وما يمكن أن يحقق من مصالح للسلم والرفاهية، أو للقوة والحرب، أو غير ذلك.

وبغير التحليل يتعذر على الباحث دراسة الكل جملة واحدة، وهو مؤلف من أجزاء، والأجزاء مؤلفة من أجزاء أدق منها، وهكذا تنازلا إلى الأدق فالأدق، حتى العناصر البسيطة الأولى.

أقسام التحليل والتركيب:

وكل من التحليل والتركيب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: عقلي (منطقي).

القسم الثاني: مادي (تجريبي).

أ - فالتحليل العقلي: هو عملية فكرية تقوم على عزل ذهني لصفات الشيء الموضوع للتحليل، أو عزل لخواصه، أو عزل لأجزائه بعضها عن بعض، بقصد معرفة حقيقته.

فهو إذن عملية فكرية تجريدية يقوم بها الباحث للوصول إلى أجزاء المعنى المركب من عدة معانٍ.

فمعنى الإنسان هو كلٌّ مركب من أجزاء، وبالبحث يتبين لنا أن المقوِّم الأساسي له من أجزائه جزءان، هما الحيوانية والناطقية، وهذه النتيجة إنما توصلنا إليها عن طريق التحليل العقلي (المنطقي).

وهذا التحليل المنطقي يكون في مختلف العلوم، بيد أنه في العلوم الرياضية أكثر وضوحا منه في غيرها.

قال الإمام الغزالي في معيار العلم عند بحث مقدمات القياس:

"وكل ناظر في شيء مركب فطريقه أن يُحلّل المركب إلى المفردات، ويبتدئ في النظر في الآحاد، ثم في المركب ...

فإن كل مركب من (مادة) و(صورة) يجب النظر في (مادته) و(صورته)، وما هذا إلا كمن يريد بناء بيت فحَقُّه أن يهتم بإفراز المواد التي منها يتركب، كاللبن والطين والخشب، ثم يشتغل بالتصوير، وكيفية التنضيد والتركيب".

ب - والتحليل المادي التجريبي: هو عملية مادية، تقوم على عزل أجزاء المركب المادي عن ارتباطها التركيبي، لاكتشاف حقيقة هذه الأجزاء وصفاتها، وخصائصها، وآثارها، ووجه ارتباطها بالشيء الذي عزلت عنه، وإمكان ارتباطها بأي جزء آخر، إلى غير ذلك مما يمكن بحثه واكتشاف شيء فيه.

وبدهي أن هذا التحليل المادي قد أفاد المعارف المادية والعقلية فوائد جمة، فقد توسعت به العمليات التجريبية توسعا عظيما جدا، وانتهى البحث العلمي به إلى اكتشاف كثير من العناصر التي كانت مجهولة من قبل، ثم استعملت هذه العناصر في مركبات جديدة مفيدة في مجالات كثيرة، كما استخدمت بعض هذه العناصر دون تركيب في مجالات كثيرة أيضا أفادت الإنسان فوائد جَمَّة.

وقد لا يمارس الباحث أعمال التحليل المادي قبل أن يقوم بأعمال التحليل الفكري،
إذ يكون العمل الفكري في التحليل سابقا للعمل المادي التجريبي.

جـ - والتركيب العقلي: هو انتقال الفكر من الأجزاء الصغيرة، أو من العناصر البسيطة، إلى الكل الذي يتركب منها، أو يمكن أن يتركب منها.

فيجمع الفكر مثلا أجزاء متفرقة، ويرتب بينها، ويعقد روابطها، ويؤلف منها كلاً ذا هيكل فكري مترابط، مادته الأجزاء، وصورته الهيئة الفكرية المجتمعة التي توصل الفكر إلى تركيبها والتنسيق بينها.

يأتي الشاعر مثلا بفكرة زورق، ثم يأتي بفكرة حمولة من عنبر، ثم يؤلف منهما جميعا كلا في صورة، ويشبه بها الهلال.

فعملية الشاعر قبل أن يصل إلى التشبيه قامت على تركيب فكري، جمع فيه أجزاء متفرقة كانت حاضرة في ذاكرته، ونسق بينها، وأقام منها صورة جديدة.

ويأتي المهندس الميكانيكي مثلاً، فيجمع في مخيلته أجزاء متفرقة مما وعت ذاكرته من عناصر الأشياء، ويؤلف بينها تأليفا مترابطا منطقيا، بحسب ما يعلم من قوانين الطبيعة وسننها، ثم ينتهي إلى ابتكار هيكل فكري مترابط، مادته الأجزاء التي جمعها، وصورته الهيئة الفكرية الهندسية التي توصل إليه ابتكارا.

وليكن ما توصل إليه في عملية التركيب الفكري مركبة "برية بحرية جوية" تغوص في الماء وتطير في الجو، وهي ذات شكل خاص، وصفات خاصة، وخصائص تختلف عما سبق أن ابتكره الإنسان في مجال المركبات.

ثم يأتي التركيب المادي التجريبي العملي فينفذ العمل التركيبي الذي قام به الفكر، وقد تصدق التجربة عمل الفكر، أو تُعَدِّل منه، أو تكذبه وترفضه، كل هذا لا يؤثر في الموضوع، لأن ما قام به الفكر على كل حال إنما هو عمل تركيبي ما، صدقه الواقع التجريبي أو كذبه.

وعملية التركيب العقلي هذه هي وسيلة الباحث إلى الاختراع والابتكار، كما هي طريقة العالم في جمع وحدات المعرفة منسقة في كتب وأبواب وفصول وأقسام وأصناف وأنواع ومباحث ومسائل، ونحو ذلك من دوائر تجتمع فيها أجزاء ذات ترابط، فيتألف منها كلٌّ ذو هيئة منطقية.

د - والتركيب المادي والتجريبي: هو عملية مادية تقوم بالتأليف بين العناصر المادية الجاهزة في الطبيعة أو التي انتهت إليها أعمال التحليل المادي.

وحين يقوم الباحث بإعادة تركيب مادة ما كان قد حلَّلَها سابقاً إلى عناصرها هو أو غيره، فإنه يمتحن بعمليته التركيبية دقة العملية التحليلية وصوابها، أو يكتشف عدم الدقة فيها، أو خطأها وعدم صوابها.

أما حينما يقوم الباحث باختبار مركبات جديدة فإنه يحاول اكتشافا جديدا ذا ظواهر وآثار وشروط وخصائص لا تعرف على وجهها الصحيح إلا بعد التجربة والامتحان.

وكم اكتشف الباحثون مركبات جديدة نافعة لم تكن معروفة من قبل، وازدهرت بها الحضارة المادية الحديثة، وكانت الوسيلة إليها عمليات التركيب التي قام بها الفكر العلمي.

وقد لا يمارس الباحث أعمال التركيب المادي قبل أن يقوم بأعمال التركيب الفكري، إذ يكون العمل الفكري في التركيب سابقا للعمل المادي التجريبي.

[من كتاب: "ضوابط المعرفة"، صفحة: 123-143]

/IhyaeForum

جميـع الحقوق محفوظة © 2019